

عنوان البحث

جماليات الوصف في رسائل السيد عبد الله الألوسي: دراسة فنية أسلوبية

مصطفى عدنان صالح الحمداني¹

¹ باحث دكتوراه، قسم العلوم الإسلامية الأساسية، معهد الدراسات العليا، جامعة يالوفا، تركيا.

البريد الإلكتروني: aboamjdmn1969@gmail.com

HNSJ, 2026, 7(10); <https://doi.org/10.53796/hnsj710/27>

المعرف العلمي العربي للأبحاث: <https://arsri.org/10000/710/27>

تاريخ النشر: 2026/10/01م

تاريخ القبول: 2026/09/20م

تاريخ الاستقبال: 2026/19/10م

المستخلص

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن جماليات الوصف في رسائل السيد عبد الله بن محمود الألوسي، وبيان موضوعاته ووسائله الفنية والبلاغية ووظائفه في تشكيل الخطاب الرسائي، في سياق مراجعة التصورات التي تختزل الأدب العربي في العهد العثماني في الجمود وضعف الإبداع. واعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، من خلال تحليل نماذج مختارة من رسائله، شملت وصف المطر وفيضان نهر دجلة، ورياض بغداد في فصل الربيع، وآلة التلغراف، مع تتبع خصائص الصورة الفنية والبناء اللغوي والإيقاعي وصلتها بتجربة الكاتب الوجدانية. وأظهرت النتائج أن الوصف يمثل عنصراً بنائياً ودلالياً في رسائل الألوسي، يتجاوز تسجيل الوقائع والهيئات إلى إعادة تشكيل الواقع في مشاهد أدبية حية. وقد ارتكزت جمالياته على التشخيص والاستعارة والتشبيه والتخييل وتراسل الحواس، إلى جانب الاقتباس القرآني والسجع والتوازي والمقابلة، بما أسهم في تكثيف الدلالة وتعزيز الإيقاع والتأثير. كما كشفت الدراسة عن تداخل وصف الطبيعة مع مشاعر الحنين واستعادة الذكريات، وعن قدرة الكاتب على توظيف الموروث البلاغي في تصوير المخترعات الحديثة وتقريب وظائفها إلى المتلقي، كما في وصف التلغراف. وخلصت الدراسة إلى أن رسائل الألوسي تكشف عن ثراء النثر الفني العربي في العهد العثماني ومرونته في استيعاب موضوعات عصره، وتبرز أهمية إعادة قراءة النتاج الرسائي لهذه المرحلة للكشف عن قيمته الأدبية والجمالية.

الكلمات المفتاحية: عبد الله الألوسي، جماليات الوصف، فن الرسائل، الصورة الفنية، النثر العثماني، التلغراف.

RESEARCH TITLE

The Aesthetics of Description in the Letters of Sayyid Abdullah al-Alusi: An Artistic and Stylistic Study

Abstract

This study examines the aesthetics of description in the letters of Sayyid Abdullah ibn Mahmud al-Alusi, identifying its subjects, artistic and rhetorical techniques, and functions in shaping epistolary discourse. It also reconsiders perceptions that reduce Arabic literature of the Ottoman period to stagnation and limited creativity. The study adopts a descriptive analytical approach to selected letters depicting rainfall and the flooding of the Tigris River, Baghdad's gardens in spring, and the telegraph. The analysis explores artistic imagery, linguistic and rhythmic structures, and their relationship to the writer's emotional experience. The findings reveal that description serves a structural and semantic function in al-Alusi's letters, moving beyond the recording of events and appearances to reshape reality into vivid literary scenes. Its aesthetic qualities draw on personification, metaphor, simile, imaginative representation, and sensory interplay, alongside Qur'anic quotation, rhymed prose, parallelism, and antithesis. These techniques enrich meaning and strengthen rhythm and expressive impact. The study also reveals the intertwining of natural description with nostalgia and recollection, as well as the writer's ability to employ inherited rhetorical techniques to portray modern inventions and make their functions accessible to readers, as exemplified by his description of the telegraph. The study concludes that al-Alusi's letters demonstrate the richness of Arabic artistic prose during the Ottoman period and its capacity to accommodate contemporary subjects. They also highlight the importance of reassessing the epistolary literature of this period to uncover its literary and aesthetic value.

Key Words: Abdullah al-Alusi, aesthetics of description, epistolary art, artistic imagery, Ottoman prose, telegraph.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه الكرام الطيبين، ومن تبعه إلى يوم الدين، وبعد:

فهذا بحثٌ موجزٌ تناولتُ فيه ظاهرةً أدبيةً شاعت في رسائل السيد عبد الله الألوسي، وهي الوصف الذي يتخلل رسائله الأدبية بمختلف ألوانها، ولا سيما الرسائل الديوانية والإخوانية. وقد شكّلت المجاميع الأدبية، بما حوته من رسائل أدبية متبادلة بين العلماء والأدباء، رافداً مهماً ومصدراً أصيلاً للأدب في القرن الثالث عشر الهجري، وهو العصر الذي نشأ فيه السيد عبد الله الألوسي.

وعلى الرغم من أهمية هذا اللون الأدبي، فإن الدراسات التي عُنيّت بأدب هذا العصر لم تُولَ العناية الكافية من حيث تسليط الضوء عليه، والتعريف بما جادت به قرائح العلماء والأدباء فيه، فضلاً عن دراسة مظاهر هذا الفن وخصائصه في نتاج السيد عبد الله الألوسي، بوصفه واحداً من أبرز الكتّاب الذين أولوا هذه الظاهرة الأدبية عنايةً واضحة.

ومن هنا جاء هذا البحث للوقوف على جمالية الوصف في رسائل عبد الله الألوسي، والكشف عن أبرز مظاهره ووسائله الفنية والبلاغية، وما أسهم به في تشكيل الصورة الأدبية وإغناء النص وإبراز قيمته الجمالية.

مشكلة البحث

يحاول الباحث في دراسته الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- 1- ما المقصود بجمالية الوصف في رسائل السيد عبد الله الألوسي؟
- 2- ما أبرز مظاهر الوصف ووسائله الفنية والبلاغية في رسائله؟
- 3- ما القيمة الأدبية والجمالية التي حققها الوصف في رسائل الألوسي؟

الهدف من الدراسة

تهدف هذه الدراسة إلى:

- 1- الكشف عن ملامح ظاهرة الوصف في رسائل السيد عبد الله الألوسي.
- 2- تحليل نماذج مختارة من الوصف في رسائله، وبيان قيمتها الفنية والجمالية.
- 3- إبراز الملكة الأدبية والمقدرة الإنشائية لدى السيد عبد الله الألوسي من خلال رسائله.

أهمية البحث

تكمن أهمية هذا البحث في كونه يتناول جانباً من النتاج الأدبي للسيد عبد الله الألوسي، وتظهر أهميته في:

- 1- الكشف عن جانب من موهبة السيد عبد الله الألوسي الأدبية في القرن الثالث عشر الهجري.
- 2- إبراز جمالية الوصف في رسائله، وبيان قيمته الفنية والبلاغية.

خطة البحث

اقتضت طبيعة البحث أن يُقسّم على تمهيد وثلاثة مطالب وخاتمة، فضلاً عن قائمة بالمصادر والمراجع، وذلك على النحو الآتي:

التمهيد: الأسرة الألوسية ودورها في النهضة الأدبية.

المطلب الأول: التعريف بالسيد بهاء الدين عبد الله بن محمود بن عبد الله الألوسي.

المطلب الثاني: تطور الوصف في فن الرسائل.

المطلب الثالث: جماليات الوصف في رسائل السيد عبد الله الألوسي.

الخاتمة: وتتضمن أهم نتائج البحث.

أسأل الله العليّ القدير أن أكون قد وفقت في عملي هذا، والحمد لله أولاً وآخراً

التمهيد

دور الأسرة الألوسية في النهضة الأدبية

يتجلى دور الأسرة الألوسية في النهضة الأدبية في العراق خلال العهد الأخير من العصر العثماني، مع بروز العلامة شهاب الدين أبي الثناء محمود الألوسي، الذي أضحى من أبرز أعلام العلم والأدب في بغداد، وأسهم في إحداث حركة أدبية اتجهت نحو التجديد والخروج بالأدب من دائرة الصنعة البديعية التي غلبت على النتاج الأدبي في العهود السابقة. وقد مثل أبو الثناء عصره تمثيلاً بارزاً، حتى قال المؤرخ عباس العزاوي: "ولذا صحَّ أن نسمي هذا العهد بـ(عصر الألوسي)"⁽¹⁾.

ولم ينقطع حضور الأسرة الألوسية في الحياة العلمية والأدبية بوفاة أبي الثناء الألوسي، بل استمر أبنائه وأحفاده في حمل رسالته العلمية والأدبية، فحافظوا على مكانة الأسرة، وأسهموا في ترسيخ حضورها في المشهد الثقافي العراقي. ويختلف هذا الاستمرار عن حال بعض الأسر البغدادية التي خفت ذكرها بتعاقب الأجيال، لعدم وجود من يواصل مسيرتها العلمية والأدبية، ومنها الأسرة السويدية، والحيدرية، وآل الشواف، وآل الشاوي، وغيرها. أما الأسرة الألوسية فقد ازداد حضورها العلمي والأدبي بفضل أبناء أبي الثناء، الذين برزوا في ميادين المعرفة والأدب، ومن أبرزهم: عبد الله، وعبد الباقي، وخير الدين نعمان. وقد خلف هؤلاء نتاجاً أدبياً اتسم بجودة الصياغة وتنوع الأساليب، وجمع بين قوة التعبير وسلاسته، مما جعل أدابهم مادة جديرة بالدراسة والبحث.

ولم يقتصر أثر الأسرة الألوسية في النهضة العلمية والأدبية على العراق، بل امتد إلى عدد من الأقطار الإسلامية، إذ كان لأبي الثناء الألوسي حضور علمي واسع خارج بغداد. فعندما رحل إلى إستانبول، قصده العلماء وطلاب العلم في البلدان التي مرَّ بها، طلباً للإجازة العلمية أو للاستفادة من علمه ومناقشته في المسائل العلمية. وقد حظي بالتقدير والتبجيل في مختلف محطات رحلته، ولا سيما في دار الخلافة العثمانية، حيث اجتمع بشيخ الإسلام، وعُقدت له المجالس العلمية التي تناولت مباحث فقهية وكلامية وأدبية، فغدا حضوره فيها ذا شأن بارز، وكانت منزلته، على حدّ التعبير الوارد في المصادر، "منزلة القطب من الرحي"⁽²⁾.

وامتد هذا التواصل العلمي إلى أعلام آخرين من الأسرة الألوسية، ومنهم العلامة خير الدين نعمان الألوسي، الذي ارتبط بعلاقات علمية واسعة مع علماء عدد من الأقطار الإسلامية. ويكشف ثبُتُه عن صلاته بعلماء الشام والحجاز ومصر

(1) ينظر: العزاوي، عباس، ذكرى أبي الثناء الألوسي، الناشر: شركة التجارة والطباعة-بغداد، سنة الطبع 1377هـ/1958م، ص 60.

(2) ينظر: الألوسي، أبو الثناء محمود بن عبد الله، غرائب الاغتراب، تحقيق إبراهيم شمس الدين، الناشر: الدار العربية للموسوعات، الطبعة الأولى 1436هـ/2015م، ص 444-447، 448-452، 488، 492-495. الألوسي، محمود بن عبد الله، نشوة الشمول في السفر إلى اسلامبول، ص 78، 81، 100.

والهند، وتبادل الإجازات العلمية معهم، ومن أبرزهم العالم أبو الطيب صديق حسن خان القنوجي، أمير بهوبال في الهند (ت 1307هـ/1890م)⁽³⁾، والعلامة حسين بن محسن الأنصاري اليماني، نزيل بهوبال في الهند (ت 1327هـ/1910م)، والعلامة جمال الدين القاسمي الدمشقي (ت 1332هـ/1914م)⁽⁴⁾. فضلاً عن غيرهم من علماء مصر والجزيرة والشام.

ويُعدّ العلامة محمود شكري الألوسي، نجل السيد عبد الله، من أشهر أعلام الأسرة الألوسية وأبعدهم صيتاً، وقد بلغت شهرته العلمية آفاقاً واسعة، حتى وصفه السيد محمد رشيد رضا، صاحب مجلة "المنار"، بقوله: "عالم العراق ورحلة أهل الآفاق"⁽⁵⁾، وتتجلى مكانة محمود شكري العلمية والثقافية في شبكة مراسلاته الواسعة مع عدد كبير من الشخصيات العلمية والفكرية، من العرب والمستشرقين، إذ تكشف هذه المراسلات عن طبيعة التفاعل العلمي والثقافي الذي نشأ بينه وبين معاصريه، وعن اتساع دائرة الحضور الألوسي في الحياة الفكرية خارج العراق⁽⁶⁾.

ومن ثمّ، يمكن القول إن أبا الثناء الألوسي أسهم في إرساء منهج علمي وأدبي راسخ في بغداد، ثم واصل أبناؤه وأحفاده مسيرته، فحافظوا على حضور الأسرة في الحياة الثقافية، ووسّعوا دائرة تأثيرها من العراق إلى عدد من الأقطار الإسلامية. وقد أسهم هذا الامتداد المتواصل في جعل الأسرة الألوسية واحدة من الأسر العلمية والأدبية البارزة في تاريخ العراق الحديث، ولا سيما في مرحلة الانتقال من الأدب العثماني المتأخر إلى ملامح النهضة الأدبية الحديثة.

وتكتسب هذه المكانة أهمية خاصة في سياق البحث؛ إذ إن دراسة نتاج السيد عبد الله الألوسي ورسائله لا تتفصل عن البيئة العلمية والأدبية التي نشأ فيها، ولا عن الدور الذي اضطلعت به أسرته في الحياة الثقافية في بغداد. ومن هنا تأتي أهمية الوقوف على إسهامات الأسرة الألوسية في النهضة الأدبية، تمهيداً لدراسة شخصية السيد عبد الله الألوسي ونتاجه، ولا سيما ما يتصل بفن الرسائل وجماليات الوصف فيه.

المطلب الأول: التعريف بالسيد بهاء الدين عبد الله بن محمود بن عبد الله الألوسي⁽⁷⁾

أولاً: حياته وتحصيله العلمي

هو العلامة الأديب الكاتب عبد الله بهاء الدين بن محمود بن عبد الله الألوسي، أكبر أبناء العلامة شهاب الدين أبي الثناء الألوسي، ووالد العلامة محمود شكري الألوسي. وُلد في بغداد، في جانب الرصافة، ليلة الخامس عشر من ربيع الأول سنة 1248هـ/10 تشرين الأول سنة 1832م، ونشأ في بيت علم وأدب، فكان لذلك أثر واضح في تكوين شخصيته العلمية والأدبية.

نشأ عبد الله الألوسي محباً للعلم والأدب، وقد تتبّه والده أبو الثناء إلى ما ظهر عليه من ذكاء ونباهة، فتولى تعليمه بنفسه، فلقنه مبادئ العلوم العربية، وعلمه الخط حتى أتقنه وأجاد فيه. وظل ملازماً لأبيه، يقرأ عليه علوم المنقول والمعقول، ويأخذ عنه ما تيسر من العلوم، حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره، حين اضطر إلى ترك الدرس بسبب سفر والده إلى الأستانة، إذ

(3) ينظر: القنوجي، صديق حسن خان، التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الأول، إصدار وزارة الأوقاف- قطر، الطبعة الأولى، سنة الطبع 2007/1428م، ص 509-512.

(4) ينظر: النكلة، زباد، ثبت العلامة النعمان الألوسي البغدادي، الناشر: دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، سنة الطبع 1428هـ/2007م، ص 9، 47.

(5) رضا، محمد رشيد، مجلة المنار، تاريخ الإصدار: 1898 إلى 1940، مصر، (374/25).

(6) ينظر: عواد، ميخائيل وكوركيس، أدب الرسائل بين الألوسي والكرملي، الناشر: دار الرائد العربي - بيروت، سنة النشر 1987م، ص 332، 336.

(7) ينظر في ترجمته: الألوسي، محمود شكري، أخبار الوالد وبنيه الأماجد، نسخة خطية في مكتبة المتحف رقم 8623، تقع في 102 صفحة. المسك الأنفر، 171-180، الراوي، محمد سعيد، تاريخ الأسر العلمية في بغداد، ص 211-215، الأثري، محمد بهجت، أعلام العراق، ص 44-50، الزركلي، خير الدين، الأعلام، (4/136-137).

لم يجد في بغداد من يقوم مقامه في مواصلة تحصيله العلمي.

امتد سفر أبيه قرابة سنتين، لم يتلقَّ عبد الله خلالهما إلا قدرًا يسيرًا من العلم، ثم عاد إلى التحصيل بعد عودة والده إلى بغداد، وأقبل على الدرس إقبالًا شديدًا، وظل مجتدًا في طلب العلم، حريصًا على تحصيل الفوائد، حتى امتلك، بحسب ما تذكره المصادر، ملكة علمية واسعة ودراية بمختلف العلوم التي تلقاها.

ولم يكد يبلغ الثانية والعشرين من عمره حتى توفي والده وأستاذة أبو النشاء الألوسي، فكان لفقده أثر بالغ في نفسه، ولا سيما أن العلاقة بينهما لم تكن علاقة أب بابنه فحسب، بل كانت كذلك علاقة أستاذ بتلميذه. وقد تركت وفاة أبي النشاء أثرًا في حالته النفسية والجسدية، إذ كان يعاني ضعفًا لازمه منذ طفولته وبدايات شبابه، فاشتد عليه المرض وأقبل على العلاج والحمية، حتى غلب عليه الضعف والوهن.

وبعد مدة من وفاة والده، عاد عبد الله الألوسي إلى طلب العلم، فقرأ على عدد من علماء بغداد ومن عرفوا بالفضل والتحصيل، ثم اتجه إلى التدريس، وأظهر فيه قدرة متميزة على عرض المسائل العلمية وتقريبها إلى أذهان طلابه. فقصده طلاب العلم والأدب، وانتفعوا بعلمه وأسلوبه في البيان والتقرير، وظل يؤدي رسالته العلمية على الرغم من اعتلال صحته وملازمة الأسقام له.

ومع اشتداد المرض عليه، اضطر إلى ترك التدريس فترة من الزمن، وسعى إلى الاستشفاء، فسافر إلى "الطويلة"⁽⁸⁾ قاصدًا الشيخ عثمان، أحد أجلّ خلفاء الشيخ خالد النقشبندي، وتذكر المصادر أنه وجد عنده ما أعانه على تجاوز حالته المرضية. ثم عاد إلى بغداد واستأنف نشاطه في التدريس والتأليف، وكرس جانبًا كبيرًا من وقته لنشر العلم والأدب والفضائل.

غير أن الأمراض عاودته، وتزامن ذلك مع ضيق في حاله المادية، مما اضطره إلى بيع بعض ما ورثه عن أبيه من العقار، فضلًا عن بيع كتبه وأثاثه الزائد عن حاجته. ولما ضاقت به سبل العيش في بغداد، عزم على الرحيل إلى دار الخلافة العثمانية، أملًا في الحصول على وظيفة توفر له موردًا ثابتًا وتجنبه الحاجة.

وسافر عن طريق الشام، غير أن رحلته لم تكتمل، إذ اعترضه قطاع الطرق في موضع يُعرف بـ"القعرة"، فسلبوه ما كان معه وتركوه في الطريق. ثم قيض الله له أناسًا مروا به وأعادوه إلى بغداد. وقد زادت هذه الحادثة من صعوبة وضعه المادي، فعاد إلى بغداد وقد فقد ما كان يحمله، ولم يجد أمامه إلا البحث عن مورد يقيه الحاجة.

وكان عبد الله الألوسي، بحسب ما تذكره المصادر، متحفظًا من مناصب الحكام، معرضًا عن التقرب إليهم، كما عرض عليه القضاء أكثر من مرة فأبى ذلك ورعًا وزهدًا. إلا أن شدة الحاجة حملته في نهاية الأمر على قبول القضاء، فتولى قضاء البصرة، وأقام فيها نحو سنتين، أثرتا في صحته وأضعفتا قواه.

وبعد انتهاء مدة عمله في البصرة عاد إلى بغداد، وقد اشتدت عليه علته المزمنة، ولا سيما ما أصابه من ورم في الكبد وضعف في القلب. ولم يمض على عودته سوى مدة قصيرة حتى توفي يوم الثلاثاء الثالث من شعبان سنة 1291هـ/14 أيلول سنة 1874م، ودُفن، تنفيذًا لوصيته، إلى جوار مرقد الشيخ الجنيد البغدادي.

وتكشف سيرة عبد الله الألوسي عن شخصية علمية وأدبية عاشت في ظروف صحية ومادية صعبة، إلا أن ذلك لم يحل دون استمرارها في طلب العلم والتدريس والتأليف. وقد أسهم تكوينه العلمي في بيت أبي النشاء، وملازمته لوالده، ثم اتصاله بعلماء عصره، في بناء شخصيته الأدبية والعلمية التي تجلت في شعره ونثره ومراسلاته.

(8) قرية قرب مدينة حلبجة في شمال العراق.

ثانياً: مصنفاته الأدبية

خلف عبد الله الألوسي عدداً من المصنفات التي تكشف عن عنايته بالأدب والإنشاء والشعر، وتنوع اهتماماته بين المدائح الشعرية، والتراجم، والمراسلات العلمية والأدبية. ومن أبرز ما يُنسب إليه:

- 1- "الروض الخميل في مدائح الجميل ابن الجميل"⁽⁹⁾: وهو كتاب أدبي تضمن تراجم وأخبار العلامة الشاعر والمفتي عبد الغني آل جميل (ت 1279هـ/1862م) وأسرته. ولا يزال الكتاب مخطوطاً، وتوجد منه نسخ في المتحف العراقي، منها نسخة برقم (1249)، وأخرى صححها وعلق عليها عباس العزاوي برقم (12496).
- 2- "محكم النظام في مدائح نقيب دار السلام وأنجاله الكرام": وهو كتاب في المدائح، تناول فيه نقيب بغداد وأبنائه، ولا يزال مخطوطاً، ومنه نسخة محفوظة في مكتبة المتحف العراقي برقم (9218)، وتقع في اثنتين وثمانين صفحة.
- 3 - ديوان شعر: يضم مجموعة من قصائد عبد الله الألوسي، ويكشف عن جانب من موهبته الشعرية وذوقه الأدبي، ولم يُطبع، بحسب ما تذكره المصادر.
- 4 - مجموع مراسلاته: ويضم عدداً من رسائله إلى علماء عصره وأدبائه، وقد أُدرج بعض هذه الرسائل في مؤلفات نجله محمود شكري الألوسي، ومنها كتابا بدائع الإنشاء واللؤلؤ المنثور وحلي الصدور.

ثالثاً: نثره وإنشاؤه

برز عبد الله الألوسي في فن النثر والإنشاء، وتدل آثاره ورسائله على تمكنه من اللغة العربية وأساليبها، وعلى تأثره بالتراث البلاغي الذي كان حاضراً في الكتابة الأدبية في عصره. فقد غني بصياغة عباراته عناية واضحة، ووظف عدداً من الأساليب البلاغية والبديعية التي كانت شائعة في النثر الأدبي آنذاك.

ويظهر في نثره الاهتمام بالسجع والتوازن بين العبارات، إلى جانب توظيف أساليب البيان، كالتشبيه والاستعارة والكنية، مع المحافظة على قوة الألفاظ وإحكام التراكيب. ولا يأتي هذا التوظيف البلاغي منفصلاً عن المعنى، بل يسهم في تشكيل الصورة الأدبية وإكساب النص إيقاعاً وانسجاماً، وهو ما يبرز بصورة خاصة في رسائله.

وقد شهد له معاصروه ومن جاء بعدهم بقدرته الأدبية والإنشائية، وفي مقدمتهم نجله العلامة محمود شكري الألوسي، الذي وصفه بأنه "فارس هذا الميدان"⁽¹⁰⁾، وأشاد بسرعة بديهته وتمكنه من فن التحرير والإنشاء. كما أشار الأثري إلى مكانته الأدبية بقوله: "لو أتاحت له الصحة التامة لخدم الأدب خدمة كبرى"⁽¹¹⁾.

وتكتسب هذه الشهادة أهمية في تقويم مكانته الأدبية؛ لأنها صادرة عن نجله محمود شكري، الذي كان على معرفة وثيقة بنتاجه وشخصيته العلمية والأدبية. كما أن ما وصل من رسائله ونثره يؤكد عنايته بالصياغة البلاغية، وتنوع أساليبه، وقدرته على الجمع بين المعنى والتشكيل الفني.

ومن هنا تبدو رسائل عبد الله الألوسي مجالا خصباً لدراسة خصائص نثره، ولا سيما الوصف بوصفه عنصراً فنياً ودلالياً في بناء الرسالة؛ إذ لم يكن الوصف عنده مجرد نقل للهيئة أو تصوير للأشياء والأشخاص، بل جاء في سياقات متعددة تؤدي وظائف تعبيرية وبلاغية، وهو ما ستتجه الدراسة إلى الكشف عنه في المطلب الخاص بجماليات الوصف في رسائله.

المطلب الثاني: تطور الوصف في فن الرسائل

يُعدُّ الوصف من أبرز الظواهر الفنية التي رافقت الأدب العربي في مختلف عصوره، إذ اتخذ الأدباء وسيلة لتصوير ما يحيط بهم من مظاهر الحياة ومشاهد الطبيعة، ونقلها إلى المتلقي في صورة لغوية تقوم على دقة الملاحظة وحسن

(9) ذكره الشيخ محمد بهجت الأثري بعنوان "الروض الخميل في مدائح آل جميل"، أعلام العراق، ص 47. والذي أثبتته من النسخة المخطوطة.

(10) الألوسي، محمود شكري، بدائع الإنشاء، تحقيق خالد بن محمد آل ثاني، الطبعة الأولى، سنة الطبع 2015، ص 34.

(11) الأثري، محمد بهجت، أعلام العراق، ص 46.

التصوير. وقد وقف الشاعر والكاتب على مظاهر الطبيعة الصامتة، كالرياض والأزهار والحدائق والجبال والأنهار والبحار، فضلاً عن مظاهر الحياة المتحركة، كالطير والحيوان، فعمل على تصويرها والكشف عن أثرها في النفس والوجدان⁽¹²⁾.

ولم يستقل الوصف، في حدود ما اصطلح عليه النقاد والدارسون، بنوع مستقل من الرسائل يُعرف اصطلاحاً بـ"الرسائل الوصفية"، وإنما ظهر بوصفه عنصراً فنياً متداخلاً في أنماط متعددة من فن الرسائل، ولا سيما الرسائل الديوانية والإخوانية، فضلاً عن حضوره في الرسائل السياسية والاجتماعية والحربية والوجدانية والدينية. ومن ثم، فإن الوصف في الرسائل لا يرتبط بغرض رسائي محدد، وإنما يمثل تقنية فنية تتفاوت درجة حضورها ووظيفتها تبعاً لطبيعة الرسالة وموضوعها ومقصد منشئها.

ومع ذلك، برزت طائفة من الرسائل غلب عليها الجانب الوصفي، حتى أصبح الوصف عنصراً مهيماً في بنائها الفني، وتجاوز وظيفته التكميلية ليغدو محوراً تتشكل حوله الرسالة وتتنامى دلالتها. وقد عُرِّفت هذه الرسائل بأنها: "الرسائل التي تعنى بتصوير الجمال إلى جانب عنايتها بتوليد المعاني، حتى إن بعضها يقارب الشعر في جمال التصوير ورهافة الحس، ورشاقة اللفظ وتجاوب الأصوات وتوقيع الجمل على إيقاع السجع"⁽¹³⁾. كما عرّفها محمود رزق سليم بأنها الرسائل التي "تتناول منظراً أو حادثة أو رحلة أو حيواناً أو أي شيء آخر تصفه وتفصل نعوته المختلفة بروح أدبية ممتعة"⁽¹⁴⁾.

ويكشف هذان التعريفان عن سمتين أساسيتين في هذا اللون من الكتابة؛ تتمثل أولاهما في غلبة العنصر التصويري والعناية بتفصيل صفات الموصوف، بينما تتمثل الثانية في انتقال الوصف من مجرد نقل الصفات والهيئات إلى تشكيل فني يستثمر اللغة والإيقاع والصورة في بناء المشهد واستثارة المتلقي. وعلى هذا الأساس، يمكن النظر إلى الرسائل التي يغلب عليها الوصف بوصفها نمطاً فنياً داخل فن الرسائل، لا جنساً رسائلياً مستقلاً بالمعنى الاصطلاحي الدقيق.

وقد شهد الوصف في الرسائل تطوراً ملحوظاً في العصر العباسي، ولا سيما خلال القرن الرابع الهجري، متأثراً بما شهدته العصر من تطور حضاري وعمراني، واتساع في مظاهر الترف والتمدن، وتنوع في البيئات والمشاهد التي أصبحت مصدراً لإلهام الأدباء. ثم اتسع حضوره في الأدب الأندلسي، وأسهمت طبيعة البيئة الأندلسية بما اشتملت عليه من رياض وبساتين وأتجار وقصور في تنمية الحس الوصفي لدى الأدباء، فتنوعت موضوعاته وتعددت أشكاله. واتجه الوصف في الرسائل إلى تصوير مظاهر الطبيعة، والأحوال النفسية والانفعالية، فضلاً عن وصف المسالك والممالك والرحلات⁽¹⁵⁾.

ولم يقتصر حضور الوصف على المراحل المبكرة من تطور فن الرسائل، بل استمر في العصور اللاحقة، ومنها العصر العثماني، محتفظاً بوظيفته الفنية مع تأثره بخصائص المرحلة وطرائق الكتابة السائدة فيها. واتسعت مجالاته ليشمل تصوير الواقع ومشاهده، والتعبير عن الانفعالات الذاتية، ونقل تفاصيل الرحلات والأماكن والحوادث. كما أتاح للكاتب فرصة لإظهار قدرته على التصوير، وحسن توظيف اللغة في بناء المشهد واستحضاره أمام المتلقي⁽¹⁶⁾.

ومن ثم، يتضح أن الوصف ظل عنصراً فاعلاً في فن الرسائل، وإن تفاوتت درجة حضوره ووظيفته من عصر إلى آخر،

(12) ينظر: شوقي ضيف، أحمد شوقي عبد السلام ضيف، عصر الدول والإمارات، الناشر: دار المعارف - مصر، الطبعة الأولى، ص 183.

(13) ينظر: غريري، الدكتور خليل، الرسائل الوصفية وأنواعها لدى عماد الأصفهاني، بحث منشور في مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، المجلد 38، العدد 4 السنة 2016م، ص 212.

(14) ينظر: سليم، الدكتور محمود رزق، الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، ص 32-33.

(15) ينظر: مبارك، الدكتور زكي، النثر الفني في القرن الرابع، (171/1)، علي بن محمد، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، سنة النشر: 1990م، الطبعة الأولى، (402-405).

(16) ينظر: الهنداوي، حسين علي، أشكال الخطاب النثري العثماني، الناشر: مؤسسة الهنداوي، ص 37.

ومن كاتب إلى آخر؛ فقد يأتي تابعاً لموضوع الرسالة ومكملاً لمعناها، وقد يتسع حتى يستغرق جانباً كبيراً من بنيتها، وربما أصبح المحور الذي تنتظم حوله عناصرها. ويتيح هذا التفاوت دراسة الوصف في الرسائل من حيث موضوعاته، وطرائق تشكيله، ووظائفه الفنية والدلالية، بدل النظر إليه بوصفه مجرد نقل للصفات والهيئات.

وفي هذا الإطار، تكتسب رسائل السيد عبد الله الألوسي أهمية خاصة؛ إذ تكشف عن عناية بالوصف تتجاوز مجرد تسجيل الأخبار أو نقل الوقائع، إلى إعادة تشكيل بعض الحوادث والمشاهد في صورة أدبية تستند إلى دقة الملاحظة وحيوية التصوير. وتظهر في بعض رسائله عناية باللغة الموحية والصور البيانية، إلى جانب توظيف الحركة والتفصيل في بناء المشهد، بما يجعل الوصف متصللاً برؤية الكاتب وانفعاله بالموضوع الموصوف.

وعليه، فإن الوصف في رسائل عبد الله الألوسي لا يبدو مجرد وسيلة لنقل هيئة الموصوف أو تسجيل خصائصه، بل يتخذ في مواضع متعددة وظيفة فنية تتداخل فيها الصورة واللغة والإيقاع والانفعال، فيسهم في تشكيل الخطاب الرسائي وإغناؤه بالدلالات الجمالية. ومن هنا يمهد هذا التطور التاريخي والنظري للانتقال إلى دراسة جماليات الوصف في رسائل السيد عبد الله الألوسي، من خلال الوقوف على موضوعاته، وصوره وأساليبه، ووسائله الفنية، والوظائف التي يؤديها في بناء الرسالة والتعبير عن موقف منشئها.

المطلب الثالث: جماليات الوصف في رسائل السيد عبد الله الألوسي

يكشف النظر في رسائل السيد عبد الله الألوسي عن عناية واضحة بالوصف بوصفه وسيلة فنية تتجاوز نقل الأخبار وتسجيل الوقائع إلى بناء المشاهد واستحضارها في ذهن المتلقي. فقد اتخذ من الحوادث اليومية، ومظاهر الطبيعة، ومشاهد الحياة الاجتماعية، وبعض المنجزات الحضارية، موضوعاتٍ للوصف، وأخضعها لرؤية أدبية تستثمر طاقات اللغة والتخييل والصورة. ومن ثم لا يأتي الوصف في رسائله مجرد تابع للموضوع، وإنما يتحول في عدد من النماذج إلى عنصر أساس في تشكيل الرسالة وإغنائها بالدلالات الجمالية والانفعالية.

أولاً: جماليات وصف الطبيعة

تحتل الطبيعة مساحة ملحوظة في الوصف عند السيد عبد الله الألوسي، فقد وقف عند مظاهرها المختلفة، واستطاع أن يحول المشاهد الطبيعية من موضوعات محسوسة إلى لوحات أدبية نابضة بالحركة والانفعال. ومن أبرز ذلك وصفه للمطر الشديد وفيضان نهر دجلة في رسالة بعث بها إلى أخويه وهما في ديار بكر، إذ يقول: "إنه المطر، عند غروب شمس الأربعاء تنفس بغم الشوق الصعداء، ورمى بوجه الأرض حصى من كف السماء، فناداه الليل - وقد تحقق أن الدائرة على الأرض -: ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى. وحاك الدوي بمكوك الرياح من سدى البخار ولحمته شققاً سوداً، وصبغها الليل فكانت ظلمات بعضها فوق بعض، وطنبها خيمة خيمة على أكتاف العراق في الطول والعرض، واشتدّ الريح والظلام، وشرع جنّي الليل يُخَوِّف صبيّ النهار كلما أحسّ منه بقيام، حتى سلّ الفجر قرضابه الأبيض من غمده الأسود، وأغمد الليل قامة الجوزاء بعد أن كان بها على النهار يتهدد، فهان الأمر في الجملة، وكشفت قناعها غانية السماء"⁽¹⁷⁾.

تقوم جمالية هذا النص على تحويل الظاهرة الطبيعية من مشهد ساكن إلى مشهد متحرك تتفاعل عناصره بعضها مع بعض؛ فقد عمد الألوسي إلى تشخيص المطر والليل والفجر والسماء، وأسند إليها أفعالاً وصفات تنتمي في أصلها إلى عالم الإنسان. فالمطر "تنفس" و"رمى"، والليل "ناداه" و"يخوّف"، والفجر "سلّ" سيفه، والسماء "كشفت قناعها". وبذلك لم تعد الطبيعة موضوعاً خارجياً للمشاهدة، وإنما أصبحت طرفاً فاعلاً في المشهد، مما أكسب الوصف حيوية وحركة. ويلاحظ في هذا السياق أن الألوسي لم يعتمد صورة مفردة معزولة، وإنما بنى مشهداً تصويرياً متكاملاً تتعاقب فيه الصور

(17) الألوسي، محمود شكري، أخبار الوالد وبنيه الأمجاد، الورقة 13، الأثري، محمد بهجت، أعلام العراق، ص 48.

وتتداخل؛ فصورة المطر تستدعي صورة السماء، ثم ينتقل الوصف إلى الليل والظلام، ثم إلى الفجر وانحسار الليل. ويمنح هذا التدرج المشهد حيويةً وحركةً، إذ تبدو عناصر الطبيعة وكأنها في صراع متواصل ينتهي بانتصار الضوء وانكشاف السماء.

وقد أسهمت اللغة الإيقاعية في تعزيز هذه الحركة؛ إذ تتجاوز العبارات المتوازنة، ويتردد السجع في مواضع متعددة، فضلاً عن المقابلة بين الثنائيات المتضادة، كالليل والنهار، والأسود والأبيض، والظلمة والضياء. كما استثمر الكاتب الاقتباس القرآني في قوله: "ما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"، فأضفى على المشهد كثافة دلالية وإيحاء يتجاوز الوصف المباشر إلى استحضار المرجعية الدينية في بناء الصورة.

ولا يقتصر وصف الطبيعة عند الألوسي على الظواهر الجوية، وإنما يمتد إلى تصوير الرياض والبساتين في مواسم ازدهارها. ومن ذلك رسالته التي يصف فيها رياض بغداد في فصل الربيع، مستحضرًا في الوقت نفسه ذكريات أيام مضت، إذ يستهل رسالته بقوله: "لله درُّ أيامٍ تَصَرَّمْتُ معكم ما كانَ أهنأ وأعلاها! ... كم قد فاضت مِنَّا عليها العيون، وتساعدت لأجلها زفرات الشجون".

ويكشف هذا الاستهلال عن انتقال الوصف من المجال الحسي إلى المجال الوجداني؛ فالكاتب لا يستحضر الربيع بوصفه فصلاً من فصول السنة فحسب، وإنما يستحضره من خلال الذكريات التي ارتبطت به. ومن ثم يصبح المشهد الطبيعي باعثاً على استرجاع الماضي، ويتحول وصف المكان إلى وسيلة للتعبير عن الحنين والشوق.

وتتأسس جمالية هذا النوع من الوصف على تشخيص الطبيعة، وعلى الاستعانة بمعجم الزينة واللباس والحلي، بحيث تبدو الأرض في هيئة امرأة تترزين بالملابس والحل وتتحلى بالجواهر. وبهذا ينتقل الوصف من تعداد مظاهر الربيع إلى بناء صورة كلية تتأزر عناصرها لتشكيل هيئة جمالية متكاملة.

ولا يقف التصوير عند حدود اللون والشكل، بل يتسع ليشمل الصوت والحركة، كما في قوله: "وَتَرَنَّتْ أَطيارها، وتفتحت أزهارها... قد ملئ دوحها من تجاوب أصوات النشيد، وأفعم صرحها بالصدح والتغريد".

وهنا تتكامل حواس المتلقي في بناء المشهد؛ فالعين تترك الأزهار والرياض، والأذن تستقبل أصوات الطيور وتغريدها. ومن ثم يقوم الوصف على تداخل الحواس وتراسلها، فيتحول المكان إلى فضاء حي تتصافر فيه الألوان والأصوات والحركة.

ولا يقف الوصف عند حدود المشهد الطبيعي، بل يتداخل فيه وصف الإنسان، فيغدو جمال الأشخاص جزءاً من جمال المكان، كما في قوله: "ولعمري ذلك القصيل⁽¹⁸⁾ الذي غدا كثير الوصف فيه أقل قليل، لا ترى فيها إلا الغيد والآرام، تفوق ريًا محاسنهم على الشيخ والخزام⁽¹⁹⁾، تزي بالشفيق⁽²⁰⁾ ألوان ثيابهم، ويفوق الرحيق طيب رُضابهم⁽²¹⁾".

ينتقل الألوسي في هذا الموضع من وصف الرياض إلى وصف روادها، غير أنه لا يفصل بين الصورتين، بل يقيم بينهما علاقة جمالية تجعل الطبيعة معياراً لبيان جمال الإنسان؛ فاستعان بالشيخ والخزام والشفيق والرحيق، وهي مفردات تنتمي إلى عالم النبات والعطر واللون، ليصور بها محاسن الأشخاص وألوان ثيابهم وطبيعتهم. وبذلك تتداخل صورة الإنسان بصورة المكان، ويتحول الوصف الطبيعي إلى إطار جمالي يحتضن الوصف الإنساني ويغذيه بعناصره الحسية والتخيلية.

(18) القصيل: ما اقتطع من الزُّرْع أخضر لعلف الدَّوَاب. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط، الناشر: مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، 1425هـ-2004م، مادة (قصيل)، (2/ 740).

(19) الشَّيْبُ، نبتٌ سُهلِيٌّ من الفصيلة المركبة، رائحته طيبة قويّة، كثير الأنواع ترعاه الماشية. والجمع: شيجان.

الخزام: نبات طيب الرائحة. المعجم الوسيط، مادة (شيخ) و (خزم) (1/ 233، 502).

(20) الشقيق: شقائق النعمان، نباتٌ عشبيٌّ من فصيلة الشَّقِيقيَّات، تختلف أنواعه حسب المناطق، منه ما هو أبيض وأحمر، مبقعٌ بنقطة سود، ينتشر في الحقول، وهو نباتٌ حوليٌّ ينبت برياً في أواخر الشتاء وفي الربيع، ويعرف أيضاً بالشَّقَارَى. المعجم الوسيط، مادة (شقق) (1/ 488).

(21) الرُّضَاب - كغراب: الريق المرشوف، أو قطع الريق في الفم، وفتات المسك. المعجم الوسيط، مادة (رضب) (1/ 349).

ولا تتفصل الطبيعة في هذا النص عن التجربة النفسية، إذ يقول: "وكم قد قضينا على حافة أنهارها الوطر، وصَرَمْنَا بِقُرْبِهَا حَبَالَ اعْنَاقِ الْكَدَرِ، وَمَرْقْنَا بَتَهْلُلِهَا حُجَبَ غَمُومِ نَوَائِبِ الدَّهْرِ".

فالمكان هنا لا يؤدي وظيفة جمالية فحسب، وإنما يتحول إلى فضاء للراحة والانعقاد من الهموم؛ فالأنهار والرياض تصبح مرتبطة بذكريات الأنس، ويغدو حضور الطبيعة وسيلة لتخفيف "غموم نوائب الدهر". ومن ثم يتداخل الوصف الخارجي مع التجربة الوجدانية، بحيث يصعب الفصل بين صورة المكان والأثر الذي تركه في نفس الكاتب.

ويفرد الألوسي جانباً من وصفه للأشجار والثمار، فيقول: "قد قامت نخلها الباسقات على ساق، لخدمة مَنْ قعد في ظلالها من الرفاق، ... وقد تدلّى الليمون بأنواعه كأنه قِطْعٌ مِنَ الكهرب على تلك الأغصان، وقد فاق رُضابُه على الصَّرْبِ وهَيَّجَ محاسنُه الأشجان".

وتبرز في هذا المقطع قدرة الألوسي على الجمع بين الدقة الحسية والتخييل البلاغي؛ فالنخل لا يظهر بوصفه عنصراً نباتياً فحسب، بل يشخصه الكاتب في صورة خادم يقوم بخدمة الجالسين في ظلاله، بينما يتحول الليمون إلى قطع من الحجر الكريم النادر (الكهرب) في صورة تشبيهية تستحضر لمعانه وهيئته. وهكذا يتداخل الواقعي بالتخييل، ويغدو الشيء الموصوف نقطة انطلاق لبناء صورة جديدة تتجاوز خصائصه المباشرة.

ويبلغ هذا التصوير ذروته في قوله: "وأشرق شمس النارج والبرتقال، في أفلاك تلك الأشجار التي ليس لها في غير هذه الديار مثال، ولاحث كواكب الأزهار على تلك الآصال، فهي مشرقه الضياء بالغدو والآصال".

يعتمد الألوسي هنا على نقل عناصر من الفضاء الكوني الخارجي إلى عالم النبات الأرضي؛ فثمار النارج والبرتقال تصبح "شموساً"، والأزهار "كواكب"، والأشجار "أفلاكاً". وهذا التخييل يرفع المشهد الطبيعي من مستوى الواقع المحسوس إلى مستوى الصورة الشعرية، ويمنح عناصر الطبيعة اتساعاً بصرياً وإيحاءً جمالياً. وتأتي الخاتمة بتقزيم قدرة الوصف أمام الموصوف:

فكأنها ويراع الوصفين لها بحر مقيس إلى منقار عصفور⁽²²⁾

وهي خاتمة تعكس عجز اللغة عن الإحاطة بالجمال.

وبذلك تتحوّل الرسالة من مجرد وصفٍ للطبيعة إلى نصٍّ أدبي متكامل، ينهض على التخييل والتأثير، ويؤكد المكانة الرفيعة للربيع في الأدب الوصفي، ولا سيما في النثر الرسائلي العثماني.

ثانياً: جماليات وصف مظاهر الحضارة والمخترعات

لم تكن الطبيعة المجال الوحيد للوصف عند السيد عبد الله الألوسي، بل امتد اهتمامه إلى مظاهر الحضارة وما استحدث في عصره من أدوات ومخترعات. ويكشف هذا الجانب عن اتساع تجربته الوصفية وقدرتها على استيعاب موضوعات جديدة، إذ لم يحصر الوصف في الأشياء المألوفة التي اعتاد الأدباء تناولها، وإنما اتجه إلى تصوير بعض المنجزات التقنية التي أثارت دهشة أبناء عصره.

ومن أبرز النماذج في ذلك وصفه لآلة التلغراف، بعد وصولها إلى العراق في عهد السلطان عبد المجيد خان الأول (ت 1861م)، إذ خصها بوصف مطول حافل بالصور البيانية والتخييل. ويستهل وصفه بقوله: "قد تبينَ الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، فافتح عينَ بصيرتك لتشاهد ما تشاهد، وليس الخبر كالعيان من عظيم الفخر".

يهيئ هذا الاستهلال المتلقي للانتقال من عالم الخبر إلى عالم المشاهدة، ويجعل فعل الرؤية مدخلاً إلى التعرف على المنجز الجديد. كما يوظف الكاتب العبارة ذات الإيحاء القرآني في بناء مقدمة ذات طابع تصويري، تنقل المتلقي من مجرد السماع عن المخترع إلى محاولة تخيله ومشاهدته.

(22) الألوسي، محمود شكري، أخبار الوالد وبنيه الأمجاد، الورقة 29-32.

ثم يبني الألوسي صورة التلغراف من خلال مجموعة من الاستعارات المتتابعة، فيربطه بإيصال الأخبار وتواصل الممالك، ويجعله وسيلة تصل بين الأماكن المتباعدة، ومن ذلك قوله: "وطالَ طَوَلُ نَعْمَتِهِ حتى تساوى في نَيْلِ مرحمته القويُّ والصعلوك، من امتدادِ التلغراف على سلسلة سائر الممالك المحروسة، امتدادَ ظِلِّ إجلاله عليها وعلى مناصِ الأعواد في جميع البلاد جليهم عروسة، كما جَلَى ظلمات الظلم عنها بما يوصله إليها في كلِّ لحظة من أنوار عدله إليها".
ويلاحظ أن الألوسي لا يتعامل مع التلغراف بوصفه آلة محايدة، بل يحمله دلالات تتصل بالتواصل والعدل والسلطة، فيتحوّل المخترع في النص من مجرد أداة تقنية إلى عنصر فاعل في تصور الكاتب للعالم. وتزداد هذه السمة وضوحاً حين يصفه بعبارات ذات دلالات إنسانية، فيجعله "لسان رأفته" و"قلم شفقتة"، ويصوره "واشياً" و"صراطاً" و"جسراً" و"قيداً" و"شاقولاً".

وتقوم جمالية هذه الصور على التشخيص والاستعارة الممتدة؛ إذ تتحوّل الآلة الجامدة إلى كائن يؤدي أفعالاً إنسانية، فتتكلم وتوصل وترتبط وتهدي. ولا تقتصر هذه الاستعارات على تجميل العبارة، بل تؤدي وظيفة تفسيرية أيضاً، إذ تساعد الكاتب على تقريب التقنية الجديدة إلى ذهن المتلقي من خلال ردّ وظائفها إلى أفعال وأشياء مألوفة في بيئته الثقافية. ويعزز الألوسي صورة التلغراف بالمبالغة في تصوير سرعته وخفاء فعله، فيقول: "فما حبال سَحَرَةِ فرعونَ وفتيته إلّا خيال يلقفها بفم حقيقته، يكاد يخطف الأخبار من أيدي الأفواه أسرع من البرق الخاطف".

وتكشف هذه المقارنة عن مقدار الدهشة التي أحدثها المنجز التقني في الكاتب، إذ يقيس سرعته بأمر خارق مألوف في المخيال الديني والأدبي. غير أن المبالغة هنا لا تنفصل عن الوظيفة الوصفية؛ فهي تؤدي إلى تقريب خصيصة السرعة التي امتاز بها التلغراف إلى ذهن المتلقي من خلال صورة مألوفة في ثقافته.

ويختتم الألوسي وصفه بصورة خطابية ذات بعد ديني ووعظي، فيقول: "قد قام خطيباً فوق أعواد منبره يتلو الثناء على مَنْ أقامه بدلاً عن السنة العباد، وانتصبَ هادياً لمن ضلَّ في فيافي حيره، فأوصل الكلام حسب المرام، ولكل قوم هاداً"⁽²³⁾.
ويبلغ التشخيص هنا غايته؛ إذ يتحوّل التلغراف إلى "خطيب" و"هادٍ"، وهي أوصاف تنقله من مجال الآلة إلى مجال الفعل الإنساني. كما أن استدعاء المعجم الديني والخطابي يمنح المخترع بعداً رمزياً، ويجعل وظيفته في نقل الأخبار والتواصل قابلة للفهم من خلال صور مستمدة من البيئة الثقافية للكاتب.

ويكشف هذا النموذج عن تحوّل مهمّ في الرسالة الوصفية عند السيد عبد الله الألوسي؛ إذ لم تعد مقتصرة على الطبيعة ومظاهرها، بل امتدّت إلى وصف المخترعات والظواهر الحضارية، معتمدةً على التشخيص والاستعارة الممتدة. ويُعدّ هذا النصّ شاهداً على تطوّر الرسالة الوصفية في العهد العثماني، مع احتفاظها بسمات النثر الفني وطاقته البيانية.

ومن خلال النماذج السابقة يتبين أن جماليات الوصف في رسائل السيد عبد الله الألوسي تتأسس على مجموعة من السمات المتداخلة، أبرزها التشخيص، والتخييل، وتراسل الحواس، وتكثيف الصورة، والإيقاع، والتداخل بين الوصف الخارجي والتجربة الوجدانية. كما تكشف رسائله عن اتساع الموضوع الوصفي لديه؛ فلم يقتصر على الطبيعة ومظاهرها، بل امتد إلى الإنسان ومظاهر الحضارة والمخترعات. ومن ثمّ فإن الوصف في رسائله يتجاوز الوظيفة الإخبارية إلى بناء عالم جمالي يستثمر إمكانات اللغة في تصوير الواقع وإعادة تشكيله وفق رؤية الكاتب وانفعاله.

ثالثاً: السمات الفنية العامة للوصف في رسائل عبد الله الألوسي

تكشف النماذج السابقة أن الوصف عند عبد الله الألوسي لا يقوم على آلية واحدة، وإنما تتضافر فيه مجموعة من الوسائل الفنية التي تمنحه خصوصيته الجمالية. ويأتي التشخيص في مقدمة هذه الوسائل، إذ يعتمد الكاتب إلى إضفاء الصفات والأفعال الإنسانية على عناصر الطبيعة والأشياء الجامدة، فيحوّل المطر والليل والفجر والنخيل والتلغراف إلى عناصر فاعلة داخل المشهد.

(23) الألوسي، محمود شكري، أخبار الوالد وبنيه الأماجد، الورقة 32-35.

ويبرز كذلك التخيل بوصفه وسيلة لتجاوز الخصائص الحسية المباشرة للموصوف؛ فالأشجار تتحول إلى أفلاك، والأزهار إلى كواكب، والثمار إلى شمس، والتلغراف إلى خطيب وهادٍ. ولا تأتي هذه الصور لمجرد الزخرفة، وإنما تسهم في إعادة تشكيل الواقع وفق رؤية الكاتب وانفعاله.

كما يحضر ترسل الحواس في عدد من النصوص، ولا سيما في وصف الرياض؛ إذ تتداخل الصورة البصرية مع الأصوات والحركة والروائح، فيستقبل المتلقي المشهد من خلال أكثر من حاسة، الأمر الذي يمنح الوصف كثافة حسية وحيوية واضحة.

ومن السمات اللافتة أيضاً التداخل بين الوصف الخارجي والتجربة الوجدانية؛ فالمكان الطبيعي عند الألوسي ليس منفصلاً عن الذكريات والمشاعر، بل يستدعي الماضي ويستحضر الأنس والحنين، كما في وصفه لرياض بغداد. وبذلك يصبح الوصف وسيلة للتعبير عن الذات بقدر ما هو تصوير للموضوع الخارجي.

ويضاف إلى ذلك الإيقاع اللغوي الذي يتجلى في السجع والتوازي والمقابلة وتجاوز الألفاظ المتناظرة، وهي سمات تتصل بخصائص النثر الفني في عصره. ويسهم هذا الإيقاع في تعزيز موسيقى النص، وإضفاء قدر من الانسجام على المشاهد الوصفية.

ومن ثم، فإن الوصف في رسائل السيد عبد الله الألوسي يتجاوز الوظيفة الإخبارية إلى بناء عالم جمالي يعيد فيه الكاتب تشكيل الواقع من خلال اللغة والصورة والتخيل والانفعال. كما أن تنوع موضوعاته، بين الطبيعة والإنسان ومظاهر الحضارة والمخترعات، يدل على اتساع تجربته الوصفية وقدرته على تطويع الأساليب البلاغية الموروثة للتعبير عن موضوعات عصره. وبذلك يغدو الوصف في رسائله عنصراً بنائياً يسهم في تشكيل الخطاب الرسائي، ويكشف في الوقت نفسه عن ذوق الكاتب ورؤيته وموقفه من الأشياء والأحداث.

الخاتمة

نتائج البحث

كما بدأنا بحثنا بحمد الله تعالى، نختمه بالثناء عليه، فهو أهلٌ للثناء والحمد في كل حين. وبعد أن وقّنا الله تعالى إلى إتمام هذا البحث الموسوم بـ "جماليات الوصف في رسائل عبد الله الألوسي"، توصلنا إلى مجموعة من النتائج، من أبرزها:

- 1- أن السيد عبد الله الألوسي يضارع كبار كتّاب العربية في توظيف ظاهرة الوصف، بما يكشف عن قدرته الفنية واللغوية في هذا المجال.
- 2- أن الوصف في رسائل الألوسي اعتمد على عدد من التقنيات البلاغية ووسائل التخيل، مما أسهم في إضفاء الجمالية والتأثير في نصوصه.
- 3- أن كتابات الألوسي تمثل نموذجاً متميزاً في فن الكتابة، لما تتسم به من ثراء لغوي وبلاغي وجمالي.
- 4- أن توظيف الوصف في رسائل الألوسي لم يكن مجرد نقل للصور والأحداث، بل جاء عنصراً فنياً أسهم في بناء النص وإبراز دلالاته الجمالية.
- 5- أن دراسة رسائل الألوسي تكشف عن جانب مهم من الإبداع النثري العربي، وتؤكد أهمية هذه الرسائل بوصفها مادة أدبية وبلاغية جديرة بالدراسة.

قائمة المصادر والمراجع

- الأثري، محمد بهجة. (1345هـ/1926م). *أعلام العراق* (ط. 1). القاهرة: المطبعة السلفية.
- Al-Athari, Muhammad Bahjat. (1926). *Notable Figures of Iraq* (1st ed.). Cairo: Al-Matba'ah al-Salafiyyah.
- الألوسي، أبو الثناء محمود بن عبد الله. (1436هـ/2015م). *غرائب الاغتراب ونزهة الألباب* (إبراهيم شمس الدين، تحقيق؛ ط. 1). بيروت: الدار العربية للموسوعات.
- Al-Alusi, Abu al-Thana' Mahmud ibn Abdullah. (2015). *The Wonders of Travel and the Delight of Minds* (Ibrahim Shams al-Din, Ed.; 1st ed.). Beirut: Al-Dar al-'Arabiyyah lil-Mawsu'at.
- الألوسي، أبو الثناء محمود بن عبد الله. (2019م). *نشوة الشمول في السفر إلى إسلامبول ونشوة المدام في العود إلى مدينة السلام، 1851-1852* (هيثم سرحان، تحقيق وتقديم). أبوظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع؛ بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر. library.shoman.org.jo
- Al-Alusi, Abu al-Thana' Mahmud ibn Abdullah. (2019). *The Rapture of the Journey to Istanbul and the Ecstasy of Returning to the City of Peace, 1851-1852* (Haytham Sarhan, Ed. and introduction). Abu Dhabi: Dar al-Suwaydi for Publishing and Distribution; Beirut: Arab Institute for Research and Publishing.
- الألوسي، محمود شكري. (د.ت.). *أخبار الوالد وبنيه الأماجد* [مخطوط]. مكتبة المتحف، رقم الحفظ 8623.
- Al-Alusi, Mahmud Shukri. (n.d.). *Accounts of My Father and His Distinguished Sons* [Manuscript]. Museum Library, manuscript no. 8623.
- الألوسي، محمود شكري. (2015م). *بدائع الإنشاء، ولبه رياض الناظرين في مراسلات المعاصرين: الرسائل المتعلقة بقطر وأعلامها* (خالد بن محمد بن غانم آل ثاني، تحقيق؛ ط. 1). بيروت: دار ابن حزم. daribnhazm.com
- Al-Alusi, Mahmud Shukri. (2015). *Masterpieces of Composition, Followed by Gardens for Readers of Contemporary Correspondence: Letters Concerning Qatar and Its Notable Figures* (Khalid ibn Muhammad ibn Ghanim Al Thani, Ed.; 1st ed.). Beirut: Dar Ibn Hazm.
- الألوسي، محمود شكري. (2007م). *المسك الأنفر في نشر مزايا القرنين الثاني عشر والثالث عشر* (عبد الله الجبوري، تحقيق). بيروت: الدار العربية للموسوعات. ci.nii.ac.jp
- Al-Alusi, Mahmud Shukri. (2007). *Fragrant Musk: Celebrating the Distinction of the Twelfth and Thirteenth Hijri Centuries* (Abdullah al-Juburi, Ed.). Beirut: Al-Dar al-'Arabiyyah lil-Mawsu'at.
- بن محمد، علي. (1990م). *النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس: مضامينه وأشكاله* (ط. 1، ج. 1-2). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- Bin Muhammad, Ali. (1990). *Andalusian Literary Prose in the Fifth Hijri Century: Its Themes and Forms* (1st ed., Vols. 1-2). Beirut: Dar al-Gharb al-Islami.
- التكلا، محمد زياد بن عمر. (1428هـ/2007م). *ثبت العلامة النعمان الألوسي البغدادي، ومعه إجازاته للعلامة جمال الدين القاسمي ورسالة منه للعلامة إسحاق النجدي* (دراسة وتحقيق؛ ط. 1). بيروت: دار البشائر الإسلامية.
- Al-Taklah, Muhammad Ziyad ibn Umar. (2007). *The Scholarly Transmission Register of al-Nu'man al-Alusi al-Baghdadi, Together with His Authorizations to Jamal al-Din al-Qasimi and a Letter to Ishaq al-Najdi* (Study and critical edition; 1st ed.). Beirut: Dar al-Basha'ir al-Islamiyyah.
- الراوي، محمد سعيد. (1997م). *تاريخ الأسر العلمية في بغداد* (عماد عبد السلام رؤوف، تحقيق وتعليق؛ ط. 1). بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة. drabusulaimanlibrary.com
- Al-Rawi, Muhammad Sa'id. (1997). *The History of Scholarly Families in Baghdad* (Imad Abd al-Salam Ra'uf, Ed. and annotations; 1st ed.). Baghdad: Dar al-Shu'un al-Thaqafiyyah al-'Ammah.

رضا، محمد رشيد. (1898–1940م). *مجلة المنار* [دورية]. القاهرة.

Rida, Muhammad Rashid. (1898–1940). *Al-Manar* [Periodical]. Cairo.

الزركلي، خير الدين. (2002م). *الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين* (ط. 15). بيروت: دار العلم للملايين.

Al-Zirikli, Khayr al-Din. (2002). *Notable Figures: A Biographical Dictionary of Famous Arab Men and Women, Arabists, and Orientalists* (15th ed.). Beirut: Dar al-‘Ilm lil-Malayin.

سليم، محمود رزق. (1377هـ/1957م). *الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث*. القاهرة: مطابع دار الكتاب العربي.

Salim, Mahmud Rizq. (1957). *Arabic Literature and Its History in the Mamluk, Ottoman, and Modern Periods*. Cairo: Dar al-Kitab al-‘Arabi Press.

ضيف، شوقي. (د.ت.). *تاريخ الأدب العربي: عصر الدول والإمارات* (ط. 1). القاهرة: دار المعارف.

Dayf, Shawqi. (n.d.). *The History of Arabic Literature: The Era of States and Emirates* (1st ed.). Cairo: Dar al-Ma‘arif.

العزاوي، عباس. (1377هـ/1958م). *نكرى أبي الثناء الألوسي: عصره ومجتمعه وحياته العلمية والأدبية والتاريخية والسياسية ومؤلفاته*. بغداد: شركة التجارة والطباعة. ci.nii.ac.jp

Al-‘Azzawi, Abbas. (1958). *In Memory of Abu al-Thana’ al-Alusi: His Era, Society, Scholarly, Literary, Historical, and Political Life, and His Works*. Baghdad: Al-Tijarah wa-al-Tiba‘ah Company.

عواد، ميخائيل، وعواد، كوركيس. (1987م). *أدب الرسائل بين الألوسي والكرملي*. بيروت: دار الرائد العربي.

Awwad, Mikhail, & Awwad, Kurkis. (1987). *Epistolary Literature between al-Alusi and al-Karmali*. Beirut: Dar al-Ra‘id al-‘Arabi.

غزيري، خليل قاسم، وأميري، مسعود. (2016م). *الرسائل الوصفية وأنواعها لدى عماد الأصفهاني*. مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، (4)38، 207–222. search.mandumah.com

Ghrai, Khalil Qasim, & Amiri, Masoud. (2016). Descriptive letters and their types in the works of Imad al-Asfahani. *Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies, Arts and Humanities Series*, 38(4), 207–222.

القنوجي، محمد صديق حسن خان. (1428هـ/2007م). *التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الآخر والأول* (ط. 1). الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

Al-Qannawji, Muhammad Siddiq Hasan Khan. (2007). *The Crown Adorned with Jewels of the Achievements of Later and Earlier Generations* (1st ed.). Doha: Ministry of Endowments and Islamic Affairs.

مبارك، زكي. (1352هـ/1934م). *النثر الفني في القرن الرابع* (ط. 1). القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية. sites.dlib.nyu.edu

Mubarak, Zaki. (1934). *Artistic Prose in the Fourth Hijri Century* (1st ed.). Cairo: Dar al-Kutub al-Misriyyah Press.

مجمع اللغة العربية بالقاهرة. (1425هـ/2004م). *المعجم الوسيط* (ط. 4). القاهرة: مكتبة الشروق الدولية.

Academy of the Arabic Language in Cairo. (2004). *Al-Mu‘jam al-Wasit [The Intermediate Arabic Dictionary]* (4th ed.). Cairo: Maktabat al-Shuruq al-Dawliyyah.

الهنداوي، حسين علي. (د.ت.). *أشكال الخطاب النثري في العصر العثماني*. [بيانات الناشر غير متحققة].

Al-Hindawi, Husayn Ali. (n.d.). *Forms of Prose Discourse in the Ottoman Period*. [Publisher information unverified].